

النهر

١٥ ربيع الثاني ١٣٤٣

ج ٤ : ١٢

حياة ابن خلدون

ومثل من فلسفته الاجتماعية

محاضرة القاها الاستاذ المحقق السيد محمد الخضر

في الحفلة التي أقامتها جمعية تعاون جاليات افريقية الشبالية

مساء الجمعة ٥ صفر سنة ١٣٤٣

- ١ -

تأسست هذه الجمعية لتنهض بجاليات افريقية الشبالية حتى يسيروا مع اخوانهم المصريين جنباً لجنب : يسابرونهم في أفكارهم ، في آدابهم ، في معارفهم ، في كل شأن من شؤون حياتهم الاجتماعية الراقية . وكذلك يجب على كل جالية تعيش بين قوم ناهضين . وكذلك يجب على كل جالية تعيش في بيئة هي أوسع من أوطانها حريةً واحتمالاً للمشروعات الإصلاحية

والدعوة الى المنافسة في الخير ، والمسابقة في حلبة الشرف والسعادة ، طرق شتى ؛ ومن أقربها مأخذاً ، وأبلغها أثراً ، إلقاء محاضرات تتمثل فيها سير رجال أدركوا بصفاء المعينهم وكبر همهم مكانة راسخة ، وسعة فائقة . وقد بدا لنا

أن نفتتح محاضراتنا بهذا كرى الفيلسوف الاجتماعي أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون
نسب ابن مملوكه

هو ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن
جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي^(١). ويتصل هذا
النسب الى وائل بن حجر الصحابي الذي وفد على النبي صلى الله عليه وسلم
فبسط له رداءه وأجلسه عليه ودعا له
ذكر ابن خلدون نسبه على هذا النسق وقال : لا أذكر من نسي الى
خلدون غير هؤلاء العشرة

وفول سلفه الى الاندلس

كان خلدون المذكور قدم من المشرق في رهط من قومه أهل حضرموت
ونزل إشبيلية ، وهي حص التي يقول فيها صاحب مرثية الاندلس :
وأين حص وما تحويه من نزهة ونهرها العذب فياض وملآن
تفرع آل خلدون في إشبيلية ، وكانت لهم فيها زعامة ورياسة . ثم رحل جده
الحسن عقب فتنة خفقت ريجها في تلك البلاد فنزل سبتة ، ثم ارخى زمام مطيته
متوجهاً الى مدينة (غنابة) لصلة كانت بين بعض أسلافه وبين صاحبها الامير
زكرياء فلقية الامير بالاحتفاء ، وأدخله في سلك رجال دولته ، وجرى ابنه محمد
على سننه في خدمة الدولة وأدرك ما ناله والده من وجاهة وإقبال . وانتهى أمر
ابنه محمد - الذي هو الجد الادنى للفيلسوف ابن خلدون - الى السكنى بمدينة
(تونس) والانتظام في حياة الدولة ، وكان السلطان أبو يحيى إذا خرج من مدينة
تونس يستعمله عليها ، ولكن ابنه محمداً - وهو والد الفيلسوف المتحدث عن

(١) خلدون ينتج أوله كما نص عليه صاحب الحلال السندسية (مخطوط) ، وصاحب نيل
الابتهاج (ص ١٦٩ هامش الديباج المذهب) . وأصل اسمه خالد وعرف بخلدون كما جاء في
تاريخ المترجم ٥ (٧ : ٣٨٠)

حياته - عدل عن ملك الرياسة وخدمة الدولة وآثر مذاكرة العلم وبجالة الادباء ،
فأصبح معدوداً في زهرة العلماء ، ومشهوداً له بالتقدم في فن الادب

نشأته في تونس

في هذا البيت - الذي تقلب رجاله في أطوار خطيرة ، ثم بسط فيه العلم
أشعة باهرة - ولد أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون في غرة رمضان سنة ٧٣٢
فكانت نشأة ابن خلدون في اسرة امتطت ذري الرياسة ، وحقق فيها روح
العلم والادب ، مما ساعد ذكاه الفطري على أن يشتعل بشدة ، وجعل نفسه
الزكية بمقربة من المهم الكبيرة

نشأ ابن خلدون وكانت رياض العلم في مدينة تونس زاوية ، وسوق الادب
نافقه - فاستظهر بالقرآن ، وتلقى فن الادب عن والده - ثم أقبل يجتني ثمار العلوم
يشغف ، ويتردد على مجالسة العلماء الراسخين - مثل قاضي القضاة محمد بن
عبد السلام ، والرئيس أبي محمد الحضري ، والعلامة الابلي - ولم يكده يستوفي
سن العشرين حتى تجلت عبقريته ، واستدعاه أبو محمد بن تافراكين المستبد
وقبض على كتابه العلامة عن السلطان أبي اسحاق وهي « الحمد لله والشكر لله »
تكتب بالقلم الغليظ ما بين البسلة وما يدها من مخاطبة أو مرسوم ، وهذا مبدأ
دخول ابن خلدون في حياته السياسية

عزمه على الارتحال

تولى هذا العمل وهو بطوي ضميره على الرحلة من افريقية : لوحشة أنارها
في نفسه ذهاب معظم شيوخه ، وانطواء مجالس كانت أنهار علومها دافقة ،
وقطوف آدابها دانية . ويمكنك من هاهنا أن تعرف لابن خلدون وهو في شرح
شبابه مبدأ من مبادئ الفطرة السليمة ، والهمة الشاغحة ، وهو الاستخفاف بالمقام

الوجيه لدى الدولة ، وإينار ما فيه كمال نفسي ولذة روحية على مظاهر الابهة
ومواطن الراحة والتعيم
رحلته الى بجاية

لبث ابن خلدون بعد تقليده رسم العلامة أمداً غير بعيد حتى أمكنته
الفرصة من أمنيته ، وغادر تونس سنة ٧٥٣ الى قفصة ثم الى بسكرة ونزل فيها
ضيافاً مكرماً لدى صاحبها يوسف بن مزني
ثم خرج منها قاصداً السلطان أبا عنان وهو يومئذ بتلسان ، فلقبه على الطريق
ابن أبي عمرو صاحب بجاية آيياً من تلسان ، فصرفه عن قصد أبي عنان ،
وحمله على المير معه الى بجاية ليغتبط بصحبته ، وتزدهي بمثل ابن خلدون
أيام دولته

ابن خلدون عند سلطانه فاس

لم يكد ابن خلدون يقضي في كنف صاحب بجاية برهة حتى طار صيته ،
وعقب ذكره في حضرة السلطان أبي عنان ، وقد جعل هذا السلطان بعد عوده
الى فاس يؤلف من جلة العلماء مجلساً حافلاً ، فاستدعاه من بجاية سنة ٧٥٥ فأكل
به نظام مجلسه العلمي ، واختاره للكتابة والتوقيع بين يديه . قال ابن خلدون
« فتحملت هذا العمل على كره مني ، اذ كنت لم أعهد مثله لسلفي »

انتهامه بالمؤامرة على السلطان

حظى ابن خلدون لدى أبي عنان وارتقى في دولته مكاناً عالياً ، فأخذ حراً الحسد
يلفح قلوب بعض منافسيه ، فأخذوا يبيتون له المكائد ، وينصبون له شرك
السعاية ، حتى استطاعوا أن يدخلوا الى افساد قلب السلطان عليه من باب السياسة
اذ رموه بالدخول في مؤامرة مع الامير محمد صاحب بجاية . ولهمة الاثثار على
قلب نظام الدولة سهام لا تكاد نخساً ، اذا لم تضب المقاتل أو هت العظم وقلقت

الحشا وسلبت الاجفان نومتها المادئة ؛ وبالأحرى حيث لم تكن قضايها مما
يوكل الى اجتهاد محكمة عادلة ، واتما ينفرد بسماع بلاغها ويستبد بتقدير عقوبتها
أحد الخصمين الذي هو الرئيس الاعلى

ابن خلدون في السجن

انطلقت تلك التهمة على فكر ابى عنان قبض على ابن خلدون والامير محمد
وزجهما في السجن . وكانت هذه النكبة أول ما لقيه ابن خلدون من بلاء
السياسة وأيقن بها أن إقبال الدولة سرعان ما ينقلب إدباراً وان عزاً تبنيه للرجل
صباحاً قد يأتي عليه المساء ، فإذا هو الدرك الاسفل من الهوان
ثم ان السلطان أطلق سبيل الامير محمد ، وترك ابن خلدون يقاسي شدة
الحبس ويتجرع مرارة الحنة ، حتى التجأ في استعطافه وجلب مرضاته الى وسيلة
الشعر والمدح وخاطبه بالقصيدة التي يقول في طالعها :

على أي حال ليالي أعانبُ وأي صروف للزمان أغالبُ

وقد تنجح شفاعة الشعر لدى الحاكم المطلق وتأتي بالامر الذي تذهب الحجج
الساطة دونه عبثاً . وما كان من أبي عنان إلا أن هش له قصيدة - وكان وقتئذ
بتلمسان - ووعد بالافراج عن ابن خلدون عند حلوله بحاضرة فاس . ولكنه
لم يلبث بعد إيايه الى الحضرة الاخمس ليالي فطرقة الوجع ولقي أجله قبل ان يفي
بوعده لابن خلدون

خروجه من السجن وولادته كتابة السمر وفطنة الخاتم

وبعد مهلك السلطان بادر الوزير الحسن بن عمر الى اطلاق سراح ابن خلدون
من الاعتقال ، وخلع عليه من الاكرام بُرداً ضافيا وأعاد اليه ما كان ينقله من
اعمال الدولة

وعند ما استلم السلطان أبو سالم زمام الملك استعمل ابن خلدون على كتابة سره وألقى إليه الأمر في انشاء مخاطباته ، فعدل بالانشاء عن طريقة التسجيع وأخذ به في طريق الترسل - ولم يكن في كتاب الدولة لذلك العهد من يجيد صناعة الترسل - فكانت هذه المزية من أسباب تفوقه وإحرازه قصب السبق في حلبة البيان والتحرير

ولم تزل مكانته لدى أبي سالم راضية ، ولم تزعزعه سعاية ابن مرزوق - التي تناولت أكثر رجال الدولة - عما كان يتولاه من كتابة السر وانشاء المخاطبات ، بل لم تقف في سبيل تقليده خطّة المظالم آخر عهد الدولة ، حتى تار الوزير عمر بن عبد الله على السلطان وتبذ الناس بيعته من أعناقهم

ابن خلدونه في دولة الوزير عمر بن عبد الله

وقع زمام الحكم في قبضة الوزير عمر بن عبد الله وكانت بينه وبين ابن خلدون قبل توليه أمر الدولة مودة وصحبة ، فأقره على ما كان يتولاه من العمل وزاد في جرائته . وكان ابن خلدون بطمح بطعنان الشباب الى غاية اسى مما يتولى من الاعمال ، وفي أمله ان عناية صديقه المقدر لا تترى في اسعافه ببغيته . ولما لاح له ان الوزير أدخل بعهد الصحبة أخذه الاستياء من تقصيره الى ان اقتطع عن دار السلطان وهجرها إدلالاً سابق المودة ، ولكن منصب الوزارة انسى عمر بن عبد الله أن من أساليب عتب الاصدقاء وتذكيرهم بحق أغعضوا عنه هجرهم من غير جناء ، وصرف التقدم عن زيارتهم لا عن ملل ؛ ولم يشأ منصب الوزارة إلا أن يفهمه أن تقاعد ابن خلدون عن مقر السلطان زلة جرّه اليها تماظمه وقلة وفائه بما يستحق مقام الرياسة العليا من إكبار وخضوع ، فبدلاً من أن يرعى الوزير مقام الصداقة ويجعله أرفع مكاناً وأقوى سلطاناً من مقام الرياسة ؛ أخذته نخوة السلطة ، وقابل هجر العتاب والادلال بهجر الجفاء والتقاطع

ولما رأى ابن خلدون منه التكر والاصرار على الاعراض عنه استأذنه في
العود الى إفريقيا ، فلم يجز له ذلك ، وشدد في منعه ، حتى دخل عليه يوم عيد
الفطر وخاطبه بقصيدة يقول في طالعها :

هنيئاً لعيد لاعداء قبول وبشرى لعيد أنت فيه منيل
خلت هذه القصيدة عقدة من إباطه ، واذن له في السفر ، على شرط ان لا
يتخذ سبيلاً الى تلمسان ، كراهة ان يتصل بصاحبها أبي حمر ويشدد به أزر دولته
رعد ابن خلدون الى الاندلس

احتمل ابن خلدون هذا الشرط ، وولى وجهه شطر الاندلس واقداً على
السلطان ابن الأحمر بمرنطة . ولما بات بمقرية منها واقفه من وزيرها لسان الدين بن
الخطيب رسالة يهنئه فيها بالقدوم ، ويعبر بها عن شدة ابتهاجه لقيامه ووضع في
صدر الرسالة أبيتان - على سنة من يجيد صناعتي الشعر والنثر - وهي :

حالت حلول الغيث في البلد المحل على الطائر الميمون والرحب والسهل
يميناً بمن تمنو الوجوه لوجه من الشيخ والطفل المعصب والكهل
لقد نشأت عندي للقياك غبطة تنسي اغتباطي بالشبية والأهل

ارساله سفيراً الى ملك الاسبان

نزل ابن خلدون من السلطان ابن الأحمر منزلة الاحتفاء والانعام ،
ونديه للسفارة بينه وبين ملك الاسبان ، فعرف الملك قيمته وأعجب بكأله
ومقدرته ، حتى دعاه الى الإقامة معه بدار ملكه (إشبيلية) ، ملتزماً له بان يرد
عليه ما كان لسلفه من أملاك ، فرفض ابن خلدون هذه الدعوة ، ولم يكن ممن
يشغفه المسال حباً فيؤثره على المقام بين أمته التي يشرف بشرفها وينحط شأنه
بالحطاط سمعتها